مجلة الرائد

العدد : ٢١٩ الموافق في محرم ١٤٢١ هجري ٥ / ٢٠٠٠ ميلادي

عنوان المقال : بين جدلية الصراط المستقيم .. والمشي السوي	بقلم : جواد الشقوري

إن الباحث والمتأمل في طبيعة الخطاب الذي يوظفه الغرب قصد تمرير ثقافته وتصوره الفلسفي والفكري، سيلا حظ دون عناء جهد أنه - الخطاب - ذو أشكال وتعبيرات متعددة، يقتضيها التمايز والتفاوت في مستويات الوعي والإدراك بين الجمهور المخاطب . . .، وبالتالي فإن هذا التعدد والتنوع في الأشكال يساهم بشكل ملحوظ في تيسير عملية تغيير ثقافة الإنسان والمجتمع، وبطريقة تلقائية ستتغير ثقافة العالم. وإذا تغيرت ثقافة العالم، فإن العالم سيتغير برمته، لأن الثقافة هي التي تؤثر وتوجه الأبعاد الأخرى : الاجتماعية والاقتصادية وحتى السياسية . . .

إذا ما استطعنا أن نستوعب "الموضوعة" الأولى في هذا المقال والتي تشير إلى مسألة أساسية وهي أن الغرب استطاع أن يغير إلى حد كبير ثقافة العالم، بحيث أصبحت منسجمة مع ثوابته ومرجعيته الفكرية، فإننا سندرك طبيعة وحجم الاختراق الذي طال مجتمعاتنا العربية الإسلامية بل حتى المجتمعات الأخرى - فالغرب عندما أدرك استحالة تغيير ونسف مرجعية الشعوب العربية والإسلامية، عمد إلى إحداث فصام نكد بين ما يعتقده المسلم انطلاقا من مرجعيته الفكرية انه الحق وبين سلوكاته التي أصبحت إفرازا للمنظومة الفكرية الغربية.

من خلال ما سبق يمكن تقرير الملاحظات التالية:

* كل خطاب لا يعدد من أشكاله التعبيرية هو خطاب قاصر، لأن الجمود على شكل واحد من أشكال الخطاب، من شأنه أن يصل إلى فئة معينة من الناس، لكنه يبقى عاجزا عن اختراق الدوائر البشرية الأخرى المستهدفة من الخطاب. .

*كلما تعددت أشكال الخطاب إلا وكان احتمال الوصول إلى أكبر عدد ممكن من الجمهور المخاطب ممكنا وبنسبة عالية.

* قد يتبنى المجتمع سلوكا مناقضا لمرجعيته الحضارية، دون أن يتنكر نظريا لهذه المرجعية. وبناء على ما سبق، لا يمكن لأي خطاب أن يتأتى له النجاح والتأثير - فقط - من خلال التغني بمرجعيته والإشادة بماضيه !! بل إن الخطاب الناجح، هو الذي يستوعب مرجعيته الفكرية استيعابا دقيقا، ثم يصوغ انطلاقا منها، مقولات فكرية، وسلوكات ثقافية آخذا بعين الاعتبار الظروف المحيطة بعملية الصياغة ..

فالخطاب - أي خطاب - قد تتغير مقولاته وتعبيراته، لكن تبقى مقاصد وروح هذا الخطاب منسجمة مع المرجعية التي أنتجته ... وعندما يدعو بعض المشتغلين في ميدان الفكر والنظر إلى إعادة صياغة خطاب جديد لمرحلة جديدة، هذه الدعوة لا تعني بالضرورة الثورة على كل قديم، وعلى الثوابت التي أنتجت هذا الخطاب، كما حصل - ويحصل - مع الكثير من المفكرين العرب، الذين أرادوا أن يجددوا الخطاب العربي - الإسلامي من داخل منظومة فكرية مختلفة تماما عن المنظومة الاسلامية التي أنتجت **"الخطاب القديم"** الذي يريدون تجديده!

وكانت النتيجة المنطقية لهذا الخلل المعرفي والمنهجي تتمثل في نقطتين أساسيتين:

أولا: غياب الأصالة في هذا الخطاب

ثانيا: عدم تقبل الشعوب العربية والاسلامية لهذا الخطاب لأنه غير نابع من مرجعية الأمة ولايعبر عن آلامها و آمالها. .

إن إعادة صياغة خطاب جديد، تعنى فهم المرجعية الفكرية فهما دقيقا وجعلها تجيب على أسئلةالواقع المعاصر من داخل نسقها لا من خارجه. . .

ونستطيع بسهولة كبيرة أن نقرر - منذ البداية - أن العمل الإسلامي المعاصر بمختلف فعالياته وتياراته استطاع أن ينتج خطابا - رائدا- يتعلق بأهمية وجدوى الوقوف على الأرضية الإسلامية (الصراط المستقيم بالتعبير القرآني)، وأعتقد أن هذا الخطاب أقنع شريحة كبيرة من أفراد مجتمعنا العربي والإسلامي، بجدوى الاحتماء بالإسلام . . . وأصبحت المرجعية الإسلامية في نظر هذه الفئة من الناس : الإطار القادر على الإجابة - على الأقل من الناحية النظرية - عن ما تعانيه الأسرة البشرية من معاناة على كافة الصعد. . .

ومن الأسباب الموضوعية التي ساهمت في تسهيل عملية الإقناع بالإسلام، كخلاص حقيقي للفرد والأمة في الدنيا والآخرة، ما يلي:

أولا: لقد وجد الخطاب الإسلامي المعاصر في المخزون الثقافي والحضاري المركوز في نفسية وذهنية إنسان العالم الإسلامي ، مادة أولية ساهمت في تسهيل وتيسير عملية الإقناع : خاصة وأن المجتمع عندما يعيش انسدادات على مستوى الحاضر والمستقبل، فإنه يلجأ دائما إلى إيجاد صورته الراهنة والمستقبلية في الماضي وأمجاده !!.

ثانيا: فشل كل المنظومات والأفكار - خاصة الاشتراكية - التي كانت تقدم نفسها كحل ومفتاح

سحري للخروج من المأزق المعاصر، والتغلب على المشكلات التي تواجه إنسان العالم، والعالم الإسلامي بصفة خاصة.

إلا أن التأكيد على المرجعية الإسلامية - على أهميته - لا يعنى دائما التحكم في ناصية الواقع والتأثير الإيجابي فيه ، وإيجاد الأجوبة للأسئلة التي يطرحها العصر!!. وفي هذا الصدد أجدنى ملزما لتقرير بعض الأمور :

إضافة إلى وقوفنا على الأرضية الاسلامية (الصراط المستقيم) ينبغي ان نمشي سويا على هذه الأرضية. { **أفمن يمشى مكبا على وجهه أهدى، أمن يمشى سولا على صراط مستقيم** } الملك:٢٢

ويمكن ان نستفيد من الآية الكريمة اللفتة التالية:

بإمكاننا ان نجد من المسلمين - سواء كانوا أفرادا آو جماعات - من يمشي على صراط مستقيم لكن مشيته ليست سوية. فلا بد إذن من الوقوف على الأرضية الاسلامية (الصراط المستقيم) على مستوى الانتماء والولاء، ثم المشي السوي على هذه الأرضية. .

وكلمة "مشي " في القرآن تشير إلى الهدوء والروية، وهذا حث على التفكير الهادئ والرزين، فالذي يمشى غير الذي يجري . فالمشي كناية عن إعمال العقل الذي يحتاج إلى هدوء. وحتى لا يظن البعض أن مجرد التغني بالانتماء للإسلام كاف لحل مشكلات الواقع، جاء الخطاب القرآني ليؤكد ضرورة المشي السوي. .

ويعنى المشي السوي في كل عصر من العصور : فهم الواقع فهما عميقا ودقيقا من أجل الإجابة على الأسئلة المشكلة في دنيا الناس من داخل النسق الإسلامي .

إن طبيعة العالم المعاصر تحتم علينا - إذا أردنا أن يكون لنا مقعد يذكر بين أمم الأرض - أن نبذل غاية الجهد بغية الاقتراب من فهم الواقع والإجابة على أمهات الأسئلة التي تلاحق باستمرار الإنسان المعاصر. . وتتركه تائها وحائرا ... فالحيرة الإنسانية المعاصرة تفرض على العمل الإسلامي استحضار واستدعاء بُعدٍ أصيل وأساسي في الخطاب القرآني وهو البعد العالمي والإنساني.

والإجابة على أسئلة الواقع المعاصر (العالمي والإنساني) تعني معرفة وإدراك الآليات التي من خلالها تشكل هذا الواقع ، والتعرف على القوى والاتجاهات (الأفكار) التي ساهمت في صياغته حتى (استقر) على شكله الراهن.

أي لابد من تقديم أجوبة وتفاسير لمجمل الظاهرات التي تشكلت في واقعنا المعاصر ، والتي نلحظ

باستمرار تأثيرها الكبير في حياة الناس ... وقد تأخذ الإجابة في عصرنا شكلين من التقديم:

أولا: الإجابة على الأسئلة التي يطرحها الغرب علينا ويستفزنا بها، فلابد من تحديد دقيق لها.

ثانيا: يجب ان لا نكتفي فقط بالإجابة على الأسئلة التي يطرحها الغرب، لأنها نابعة من واقعه ومن منظومته الحضارية، بل يجب أن نواجه الغرب بطرح وتقديم أسئلة جديده (مضادة) نحسبها في مقدمة الإشكالات التي تهدد البشرية.!!

والمشروع الإسلامي : هو مجموعة الأجوبة التي نقدمها على الأسئلة التي يقدمها الواقع المعاصر ، إضافة إلى الأسئلة التي هي عبارة عن أجوبة مضادة ونابعة من تربتنا الحضارية...

وبالجملة فإن فهم الواقع (عبر تقديم أجوبة للأسئلة الحقيقية) بظاهراته المختلفة ؛ هو الذي يحدد لنا نوعية الأفكار القادرة على المساهمة الفعلية في تجاوز مغالاتنا ومغالاة العصر.

ومن الطبيعي أن تكون هذه الأفكار قابلة للتغيير بسبب ارتباطها بفهم معين لواقع متغير باستمرار ومن هنا ندرك أهمية المقولة التي تقول بضرورة "الإدراك المتجدد للمتغيرات"

ويعني هذا الإدراك ملاحظة صيرورة الواقع العالمي وسيرورته، ومواقع الجدة فيه قصد استيعابه .. وغياب هذا الإدراك سيجعلنا غارقين في "الماضي"، و متعاملين مع واقع جديد بأفكار ووسائل كانت نتاج ظروف أخرى مختلفة، إلا أن الإدراك المتجدد للمتغيرات وللأسئلة الجديدة يتطلب من العمل الإسلامي المعاصر، توفير المناخ الذي يجعل هذا الإدراك وهذا الوعي في مستوى الإجابة على الإشكالات المعاصرة التي تطرحها وتفرضها هذه المتغيرات.

ويمكن اعتبار انعدام هذا الإدراك من الأسباب الأساسية التي كانت وراء فشل حركات النهوض في العالم العربي ، وعدم تمكنها من تحقيق أهدافها التغييرية و(الثورية)، لأن الإدراك المتجدد للمتغيرات وللأسئلة يتطلب مقدمة رئيسة تتمثل في تعميق التربية النقدية في صفوف العناصر المنتمية لتلك الحركات (قيادات وقواعد ..) لأن "الأفكار والوسائل " إذا لم يتم إخضاعها للنقد المستمر الذي يلحظ تبدل الواقع وتغيره، تتحول

مع مرور الأيام إلى مسلمات يصعب المساس بها وبالأحرى تجاوزها، ويعتبر كل من يدعو إلى إعادة النظر فيها، خارجا ومتمردا بل مرتدا عن أدبيات هذه الحركة أو تلك ؟!! فيجب أن نمتلك الشجاعة الأدبية من اجل الاعتراف بعدم تمكننا - إلى الآن - في إحداث المنعطف المطلوب في واقعنا المعاصر، وذلك بسبب انحصار هذه التربية النقدية المشار. ولا تعني المرونة التي نحن بصدد الحديث عنها المس

بالثوابت والقيم التي لا تتغير بتغير الزمان والمكان.

والنقد الناجح والفعال هو الصادر عن كفاءات، ومن عناصر يمضون سحابة يومهم في البحث والمتابعة والقراءة والممارسة .. إضافة إلى ابتعادهم عن كل أشكال الوصاية والرقابة، لأن الموضوعية مطلوبة في مثل هذه الأمور؛ فينبغي لمن يتصدى لمهمة النقد والتصحيح أن يكون بعيدا عن كل الضغوطات، وخاصة منها السياسية .

والعمل الإسلامي المعاصر، يحتاج في هذا الوقت - اكثر من أي وقت مضى - إلى مراجعات جريئة ووقفات شجاعة، ليس فقط على مستوى المناهج (مناهج التغيير والإصلاح) وإنما أيضا على مستوى الأبنية الفكرية والتنظيمية.

وأعتقد أن المثقف (بالمفهوم العام والشامل لكلمة مثقف) هو المرشح للقيام بهذه المهمة، ويمكن إرجاع فشل الكثير من الحركات الاسلامية في تحقيق أهدافها إلى غياب الدور الطبيعي للمفكر (المثقف) داخل جسم الحركة الإسلامية وعدم إعطائها الأهمية المطلوبة لتخريج مفكرين وكفاءات عالية قادرة على التعامل مع الواقع بإيجابية وموضوعية وعلمية.

إن المفكر الناجح في عمله الفكري هو الذي تتوفر فيه مجموعة من المواصفات التي تجعله قادرا على فهم وتفكيك كل ما يجري من حوله من أحداث وظواهر. . . ويتميز بـ:

- الكفاءة العالية في المجال الذي يشتغل فيه / عليه.
- التفكير الهادئ والتحليل الرصين بعيدا عن كل الضغوطات (خاصة السياسية)
- محاولة الاقتراب ما أمكن من الموضوعية.
- أن يعتبر المفكر نفسه ملكا للجميع، أي لكل من يريد الإصلاح ويتوق إليه من الجماهير.

إن طبيعة العمل الفكري وأهمية البحث العلمي يفرضان على العمل الإسلامي المعاصر توفير جو من الحرية للمشتغلين في ميدان الفكر وحقل البحث العلمي . ولعل من نافلة القول أن نشير إلى أن من أبرز الأسباب التي كانت وراء ازدهار الحركة العلمية والثقافية والأدبية في تاريخ المسلمين هو ما كان يوفره النظام السياسي من حرية للمجتهدين والباحثين.

ومن المفارقات العجيبة في هذا الصدد، أن تجد بعض الحركات الاسلامية، وهي تشكو من حرمانها من حرية الممارسة، تمارس نوعا من الوصاية على أفرادها، حيث تعتبر كل من يشك أو يراجع خياراتها متمردا عنها، بل تفرض في بعض الأحيان على أبنائها حتى نوعية الكتابات التي ينبغي أن

تقرأ.

و قد يقع حتى المفكر داخل الحركة الاسلامية فيما سلف ذكره، عندما تنحصر وظيفته الأساسية في خدمة السياسات التي يرسمها التنظيم الذي ينتمي إليه، وتبرير اختياراته التي ارتبطت بظروف تاريخية معينة. فعلى سبيل المثال: كانت الحركة الإسلامية تراهن على الدولة القطرية كأداة أساسية لتغيير الواقع وإقامة الحياة الاسلامية والحكم الإسلامي، وهذا ما نلمسه في جل الأدبيات الحركية. فكان دور المفكر داخل الحركة الاسلامية دعم هذا الرأي وهذا الاختيار، والقيام بتأصيله من مختلف جوانبه، وبما أن الرهانات تختلف باختلاف الزمان وتبدل الأوضاع، فإن الرهان على الدولة القطرية قد طاله -أيضا- التغير، فاصبح التركيز على الدولة القطرية لا يشكل رهانا حقيقيا. . فبدل أن يلحظ المفكر هذا المعطى الجديد جمد على الاختيار الأول وواصل الحديث عن مركزية الدولة.

والمثال الآخر يتعلق بالمقاربة التي يعتمدها المفكر داخل الحركة الاسلامية لإشكالية الديمقراطية. فالغربيون الذين تناولوا هذا الإشكالية لاحظوا أنه في ظل النظام الديمقراطي لم يتحقق الرفاه بمعناه المطلق والعدل بمفهومه العام، وبينوا أيضا ان الديمقراطية ليست فقط آلية من آليات الحكم، وإنما فلسفه للحياة ولا يمكن فصلها عن البيئة الفكرية والفلسفية التي ظهرت فيها. وعندما اختارت بعض الحركات الإسلامية الرهان على العمل السياسي وممارسته من خلال ما يسمى باللعبة الديمقراطية، وجد المفكر داخل هذه الحركة نفسه مضطرا لإيجاد مسوغات لذلك، ولإيجاد توفيق قسري بين الإسلام والديمقراطية، وذلك باعتبارها شكلا من أشكال الشورى أو هي الشورى بنفسها.

وهذا ما يمكن تسميته بظاهرة التمركز حول التنظيم.

وأعتقد أنه آن الأوان لإيجاد جهاز مفكر، يتقيد بالوظائف التالية:

* ملاحقة الواقع لفهم طبيعة الأزمة المعاصرة بشكل علمي وموضوعي.
* امتلاك رؤية للمستقبل عن طريق تحديد الرهانات الحقيقية للعمل الإسلامي المعاصر.
* استشراف المستقبل واستباق الأحداث ورسم الطريق مسبقا أمام تطور العمل الإسلامي.
* الإجابة على إشكالاته المتعددة بحكمة تراعي إكراهات الراهن وآفاق المستقبل .